مجلة الرائد

العدد : ٢٣٧ الموافق في رجب ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/٩ ميلادي

عنوان المقال : صورة الغرب في ثقافة المسلمين	الكاتب : د. مروان قباني

مقدمة :

صورة الغرب في ثقافة المسلمين هي أحد طرفي العلاقة بين الشرق والغرب وكل طرف له أثر لدى الطرف الآخر بحركة مزدوجة سلباً وإيجاباً ، ذلك أن أهمية الآخر تكمن في أنه يشكل جزءاً من الذات .

هذه العلاقة قديمة الغور في التاريخ ، تعود إلى خمسة عشر قرناً ، وجذورها تبعد أكثر من ذلك . وهي علاقة متشعبة ممتدة على مساحة الشرق والغرب وعلى تنوع البلدان والمجتمعات قرباً أو بعداً عن حدود اللقاء . وهي علاقة معقدة متشابكة على قدر ما فيها من خلفيات وما شهدته من تحولات بين أنماط التعايش أو الفصام ، بل يكاد الصراع يكون هو الأعم الأغلب ، وكأن كل طرف يخشى أن يبتلعه الطرف الآخر فيبتعد أو لا يلتفت إلى الجوانب المشتركة من النتاج الحضاري ، وهي على ذلك علاقة دائمة التوتر على كثرة ما شابها . وهي أخيراً علاقة فائقة الحساسية على قدر ما يحكمها من اعتبارات .

لدى البحث في أدبيات الفريقين نجد أن صورة المسلمين في الغرب قد كتب عنها الكثير ، وهذه الكثرة ساهمت في إيجاد صورة نمطية غير واقعية عن الإسلام والمسلمين ، وباتت من ثوابت التوجه أو الموقف الغربي تجاه المسلمين ، وربما يعود هذا إلى أن الأوروبي كما قال المستشرق برنارد لويس (هو أكثر تعصباً تجاه المسلم) .

وعلى عكس ما حدث في الغرب من تعدد الدراسات ، فإن صورة الغرب في ثقافة المسلمين لم يتناولها إلا القلة النادرة من الباحثين ، وكونت صورة متخيلة غير دقيقة ليست أحسن حالاً من مثيلتها ، سواء كان هذا لدى المنبهر بالغرب أو الرافض له .

من مفارقات رؤية كل طرف للآخر أن الاهتمام الإسلامي بالغرب انطلق مما نقلته المذكرات والمشاهدات والتأثر الشخصي ، الذي تحول في القسم الأكبر منه إلى استجلاب نمط الغرب إلى المسلمين ، وهذا الاهتمام لم يكن من قبل متخصصين (مستغربين) كما هو الحال لدى الغرب الذي ظهر لديه تخصص علمي هو الاستشراق ، برع فيه عدد كبير من المستشرقين والمستعربين ، والذين استطاعوا وضع متخيل نمطي مشوه عن الإسلام ، ربما لأنه هو الهدف الأساسي للاستشراق ، أما معنى

الاستغراب لدينا فانحصر في الدعوة إلى الاندماج في أفكار الغرب وتطبيق قيمه .

لماذا كانت هذه الإشكالية ؟ هل لأن الغرب حاضر فينا بقوة في جميع نواحي حياتنا والقائم دائماً بالمبادرة فأصبح هو المركز ونحن الطرف ؟ هل لأننا فقدنا الثقة بأنفسنا فبات موقفنا مجرد رد فعل تجاه الغرب سواء من المنبهر به أو الرافض له ؟

دعونا لا نستعجل الحكم ولنحاول أن نستجلي الصورة منذ بدايتها ، مع صعوبة الإحاطة بجميع خلفياتها وملامسة جميع تأثيراتها ، وقد كانت كل فترة تشهد تسميات مختلفة ، فمن روم إلى إفرنج ومسيحيين ونصارى وأوروبيين واستعماريين وغربيين ، تماماً كما يتكلمون هم عنا مرة ككفار أو عرب ومسلمين ثم أتراك ، وهذا من الناحيتين انعكاس لوجود تعدد في كيان الغرب كما هو الحال لدى المسلمين .

المراحل التاريخية الأولى :

مع ظهور الدعوة الإسلامية لم تكن نظرة المسلمين إلى بقية الشعوب مسألة لافتة ، فالاحتكاك مع غيرهم ما زال ضئيلاً لا يعدو بعض العلاقات التجارية . ووضع الدين الإسلامي قاعدة للعلاقات بين الشعوب لإقامة " التعارف " : { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** } [الحجرات : ١٣] ، وهذا ما جعل غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي يتمتعون بوضع خاص يمنع التدخل في شؤونهم الدينية رغم نظرة العقيدة الإسلامية إلى ما يعتبر تشويهاً في إيمانهم .

لم تخرج العلاقة بين الدولة الإسلامية الناشئة ودولة الروم البيزنطيين عن إطار الصراع منذ غزوتي مؤتة وتبوك ، لخوف الروم من القوة الجديدة الخارجة من الجزيرة العربية . وليس لدينا من الروايات ما يشير إلى انطباع معين حمله المسلمون في ذلك الوقت عن الروم البيزنطيين ، ولا حتى عن سكان شبه جزيرة إيبيريا عند بداية فتح الأندلس .

مع ظهور حركة الترجمة لكتب الفلسفة والعلوم والطب عن اليونانية والسريانية بدأ نوع من

الاحتكاك الثقافي في نهاية القرن الثاني الهجري يلزم منه وجود نمط من الاعتبار العلمي لشعوب أنتجت هذه العلوم . ثم إن نشأة علم الجغرافيا لدى المسلمين وما يعنيه من وصف للأقاليم والمناخ والعمران ساعد ولا شك على تكوين رؤية إلى سكان بقية الأقاليم ... إلا أن الاهتمام الجغرافي بداية انحصر حول المناطق التي دخلها الإسلام دون الالتفات إلى غيرها ، يقول الجغرافي المقدسي (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) : " ولم نذكر إلا مملكة الإسلام ولم نتكلف ممالك الكفار ، لأننا لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها ، بل قد ذكرنا مواضع المسلمين منها " .

أول وصف مكتوب ينقل عن القسطنطينية ورومية جاء به بعض أسرى الحروب ودونه جغرافيون أمثال خرداذبة (ت ٢٨٠هـ/٨٩٧م) ، وتتضح صورة تلك المناطق بشكل أكثر لدى المؤرخ المشهور المسعودي (ت ٣٦٤هـ / ٩٥٧م) الذي يكتب عن اليونان وبيزنطة ورومية وكذلك عن الصقالبة (السلاف) ويصف الإفرنجة بأنهم (.. أشد هؤلاء الأجناس بأساً ومنعة ... وكلمة الإفرنج متفقة على ملك واحد ، ولا تنازع بينهم في ذلك ولا تحزب ، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بريزة وهي مدينة عظيمة ، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور) . .

شيئاً فشيئاً توسعت معلومات المسلمين حول أوروبا وصولاً إلى البلاد الاسكندنافية ، تناولت الوصف الجغرافي والمناخي وصفات الأهالي وعاداتهم (وما فيهم من شدة وقوة وما في أخلاقهم من غدر ودناءة إضافة إلى القذارة) على ما يكرره الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في روايات مطولة ، كانت نتيجة معاينة شخصية أو نقلاً عن تجار . وباختصار القول فإن الصورة المتكونة لدى المسلمين عن الإفرنج (الأوروبيين) في تلك الأزمنة لم تخرج عن وصفهم بالخمول ، والاحتقار لهم ، ولعل ذلك يعود إلى تفوق المسلمين حضارياً على غيرهم من الشعوب وقتها .. ولكن ذلك لم يصل مطلقاً إلى ظهور الشعور بالعداء تجاههم .

من الحروب الصليبية وحتى القرن الخامس عشر :

الحملات الصليبية المتوالية على مدى قرنين ، التي كانت حرباً مسيحية مقدسة ، وصفها الكاتب

الأمريكي جيمس رستون في كتابه (مقاتلون في سبيل اللّه) : بأنها كانت بعيدة جداً عن القداسة بسبب العنف والقتل الذي مورس خلالها ، ويؤكد أنه لا يوجد في التاريخ الإسلامي ما يضاهي إرهاب الصليبيين أو التعصب المسيحي في القرن الثاني عشر . هذه الحملات كانت تنم عن إدراك الغرب لقوة المسلمين في شرق المتوسط وتخوفهم من وصولها إلى أوروبا . إلا أن هذه الحروب على ما فيها من احتكاك لم تساعد على تكوين رؤية جديدة للمسلمين تجاه الغرب وواقعه الجديد أو الخطر الذي يمثله ، بل استمرت النظرة التقليدية الإسلامية له باستثناء عنصر جديد وهو نمو المشاعر العدوانية ضد الغزاة الأوروبيين ، وهو ما نراه من أبسط ردود الفعل .

ولعل المؤرخ أسامة بن منقذ (ت ١١٨٨هـ) الذي كان على علاقة خاصة مع صلاح الدين يعتبر نموذجاً في نقله الصورة اللامبالية عن الغربيين لدى المسلمين ، وقد كرر في كتابه (الاعتبار) ما يعكس احتقاره واستخفافه بعقول الإفرنج وبطبهم وعلومهم وعقائدهم وقلة نخوتهم ، يقول : " والإفرنج – خذلهم اللّه – ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة إلا للفرسان " ، هذا في الوقت الذي لا يبدي فيه حرصاً على معرفة قوتهم والبلاد التي جاؤا منها . وفي الأندلس أيضاً لم تكن النظرة الإسلامية تتجاوز ما لدى أهل الشرق برغم ظهور روح العداوة والانتقام من الأوروبيين تجاه مسلمي الأندلس . أما في المجال العلمي فما زال وقتها دور أوروبا مجرد التلقي عن المسلمين .

الموقف اللامبالي هذا أفقد المسلمين القدرة على الرؤية الصحيحة للواقع ومعرفة ما يجري في العالم الغربي الذي بدأت فيه إرهاصات للتغيير ، فبقي مجهولاً بالنسبة للمسلمين إلى حد بعيد على تعدد البلاد الأوروبية وتطور الأوضاع . يشير المستشرق برنارد لويس إلى أن أوروبا لم تثر وقتها اهتمام المسلمين ، لأنها لم تكن قادرة على أن تقدم لهم شيئاً ، وأن العلاقات السياسية لم تثر لديهم الرغبة في سبر أسرار الغرب العجيب .

عصر النهضة الأوروبية :

في القرن الخامس عشر الميلادي بدأت الصورة تنحو إلى التبدل ، فبعد فتح القسطنطينية على أيدي

العثمانيين عام (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) وتقدمهم نحو أوروبا الوسطى صارت المعرفة لدول تلك القارة تتوسع ، وبدأ يظهر شيء من الإعجاب بما لديهم ، خصوصاً وأن معالم النهضة الأوروبية قد اتضحت ، ولاح الصراع بين الدين والعلم ، وتصدرت العلوم الطبيعية بناء على الأخذ بمنهج التجربة والمشاهدة والتحليل ، فانفتحت أمام الغرب آفاق هائلة من التطور في جميع ميادين الحياة . وفي المقابل فإن الوضع لدى المسلمين أخذ بالتراجع (كان القرن العاشر الهجري أول قرون الخمود والتقليد والمحاكاة وأصيب العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه بالجدب العلمي وشبه الشلل الفكري وقد أخذه الإعياء والفتور واستولى عليه النعاس ... وضيع المسلمون الساعات والأيام بل الأحقاب والأجيال) على حد تعبير أبو الحسن الندوي .

وبرغم بداية الإعجاب بما ظهر لدى الغرب فإن تغييراً أساسياً في صورة الغرب وما يجري فيه لدى المسلمين لم يحدث ، حيث لم يتنبهوا إلى التبدلات السياسية الفكرية لدى الغربيين والقوة التي بدؤا يتمتعون بها ، والخطر الذي يمثلونه على العالم الإسلامي ، هذا الخطر الذي حركته قضيتان :

أولاهما : إدراك الغرب لطبيعة الصراع مع الشرق الإسلامي بعد هزيمتهم على يد صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، ثم بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح ، فبدؤا بشن الهجوم المضاد الذي بدأ بطرد المسلمين من الأندلس عام ١٤٩٢ وصولاً إلى تهديدهم لشمال أفريقيا ، ثم وصولهم إلى بحر العرب والمحيط الهندي فيما سمي بحركة اكتشاف الطرق البحرية .

ثانيهما : ظهور الأفكار التي أسست للثورات والتطورات الاجتماعية والاقتصادية القائمة على شرعنة التمدد الجغرافي لنهب مصادر الثروات والبحث عن أسواق جديدة .

صحيح أن بعض الصورة عن الغرب أخذ بالتبدل نتيجة توسع المعلومات التي أدت للاستعانة بالخبرات الأوروبية في مجال الأسلحة والجغرافيا ، ولكن كل ذلك لم يسهم في تكوين صورة تعكس الواقع الحقيقي للغرب ولم تمنع استمرار الظن بالتفوق الإسلامي على أوروبا .

مرحلة جديدة :

ويظهر أنه كان على العالم الإسلامي أن يتعرض لـهزة كبرى ليستيقظ على الحقيقة وليشعر بموقعه الجديد ، عندما حدثت أول هزيمة عسكرية قوية للجيش العثماني في السنة الأخيرة في القرن السابع عشر ، خسرت بها الدولة العثمانية مساحات شاسعة من الأراضي ، وكان من نتائجها بداية تراجع للاطمئنان الإسلامي بالتفوق ، وتصدع صورة الغرب الضعيف المتخلف وتشكل الصورة الجديدة له .

حاولت الدولة العثمانية معالجة أزمتها بمشاريع إصلاحية عسكرية مقتبسة من أوروبا ، والتي بدأت بالظهور كنموذج يقتدى به ومحلاً للاحترام ، إلا أن هذه الإصلاحات لم تتعد الأخذ بالخبرات العسكرية الأوروبية وتقليد العادات الملكية الفرنسية بمظاهرها الفخمة وبذخها خصوصاً أيام السلطان العثماني أحمد الثالث (ت ١٧٣٠م) .

كتب إبراهيم متفرقة (ت ١٧٤٢م) وهو شخصية مؤثرة بالانفتاح العثماني على الغرب (.. هذا الشعب المسيحي (يقصد الأوروبيين) كان بمقارنته مع المسلمين منخفضاً جداً في العدد وطبيعة الجسم والعقل ، وهو من جنس بائس ، لكن منذ بضع سنين انتشروا في كافة أرجاء العالم وانتصروا مرات عدة على الجيش العثماني ... إن كفرهم لم يمنعهم من بلوغ مرتبة أعلى من القوة والتقدم مما بلغه المؤمنون) .

وبالمقابل ربما أحدثت روح العداء للغرب عند بعض المسلمين نتيجة للهجمات على شمال أفريقيا اختلاطاً في تفسير التحولات الأوروبية ، فنقرأ ما كتبه الطاهر الفاسي عام ١٨٦٠م : (إن العقل على قسمين ظلماني ونوراني ، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية – يقصد اكتشاف البخار – ويزيدهم توغلاً في كفرهم ، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية كالإيمان بالله وبملائكته ورسله ، ومن هنا وصفهم اللّه في غير آية بعدم العقل وعدم التفكر) .

إذن ومع القرن الثامن عشر الميلادي يمكن ملاحظة ظهور أكثر من اتجاه لدى المسلمين في الصورة التي انطبعت لديهم عن أوروبا وكيفية التعامل معها ، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى تنوع الأوضاع الداخلية للبلدان الإسلامية بين الدولة العثمانية ومصر والشام والمغرب العربي ، ساعد على

ذلك تطور الأوضاع في الغرب مرة أخرى وبشكل جديد بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وانتشار مبادئها في المجال السياسي والاجتماعي .

مرحلة الصدمة والانبهار :

يعتبر العثمانيون من أوائل المسلمين الذين تعرفوا على الوجه الجديد لأوروبا بعد الثورة الفرنسية ، من خلال البعثات الدبلوماسية التي عادت حاملة مفاهيم الحرية والمساواة والثورة والجهورية التي تبناها أصحاب الشأن في الفكر والثقافة .

أما المصريون والشاميون فلم تتكون الصورة الجديدة لديهم بتمامها إلا بعد حملة نابليون ، التي جرت عامي ١٧٩٨م و ١٧٩٩م ، وفرضت صورة أوروبا كنموذج للحضارة القوية والمعتدية ذات الأفكار الجديدة في الاجتماع والسياسة ومسائل التطور العلمي في فروعه المختلفة ، والتي تم استلهامها في عمليات الإصلاح والتجديد مع الشعور بالانهزام الحضاري أمامها .. وللمؤرخ الجبرتي تعبير عن تلك النظرة المتكونة فيقول (.. ولهم في مسائل الهندسة والطب والكيمياء أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج عنها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا ..) .

أما في إيران وشبه الجزيرة الهندية فقد ترك البرتغاليون والإنكليز تأثيراً على الواقع في تلك البلاد سمح بمعرفة تطور الفنون والعلوم والصناعة والتجارة في إنجلترا ، مما نقله بعض الكتاب الرحالة ، بل بدأ تقليد التنظيم المدني الأوروبي ، فقد تم تشبيه مدينة ليكناو في الهند عام ١٨٢٤م بعاصمة أوروبية صغيرة .

يمكن لنا أن نعتبر القرن التاسع عشر الميلادي هو عنصر الانبهار الإسلامي بالغرب والانجذاب لتقليده ، وليس هذا بمستغرب ، فقد أحرز الغرب الشيء الكثير من المدنية والقوة والحرية والغلبة التي مارسها على مختلف بلدان العالم ، ومن المعلوم – كما قال ابن خلدون – أن المغلوب مولع بالإقتداء بالغالب لاعتقاده الكمال فيه .

في بداية الأمر بقي الأخذ الإسلامي عن الغرب محصوراً بالجانب المادي ، لقد كان هدفه وصل المسلمين

بأسباب القوة ، فإصلاح الجيش في الدولة العثمانية والإنشاءات العسكرية في مصر وتنظيم الجيوش في تونس والجزائر استلزم إجراءات لم ير فيها أحد تعارضاً مع الإسلام . إلا أن الأمور لم تقف عند هذا الحد ، فمع النظم العسكرية بدأ تعلم ونقل بقية عناصر الثقافة الغربية ، فالإصلاح العسكري يتطلب إصلاحاً في نظم التربية والتعليم وبرامجه ، وهذا يقتضي الإطلاع على ما في الغرب من فلسفات وأفكار وترجمة كتب العلوم والفنون المختلفة واستقدام الخبراء والمدرسين الغربيين وإرسال البعثات إلى أوروبا . وبدت أفكار المعاصرة والحداثة ونقد التراث ورفض الدين ونظرية النشوء والارتقاء والتحليل النفسي والتفسير الاقتصادي للسلوك والتاريخ وغيرها من فلسفات غربية ، بدت شديدة الجذب واعتبرت مسلمات علمية ساهمت في تشكيل الصدمة الفكرية لدى المسلمين وانبهارهم بكل معطيات الغرب بشكل دارت معه رؤوس الكثرة الغالبة من المثقفين المسلمين .

ولعل الأزهري رفاعة رافع الطهطاوي (ت ١٨٧٣م) كان نموذجاً بمفهوم ذلك الزمن للتعامل مع الغرب فيما يراه توفيقاً بين تقدم الغرب وبين إيمان المسلمين . فقد ذهب إلى باريس كإمام للبعثة العلمية التي أرسلها محمد علي ، وكتب عام ١٨٣١م كتابه الشهير (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) أكد فيه أن منجزات المدنية الأوروبية يمكن استيعابها بغير معارضة للشريعة الإسلامية ، ذلك أن الأخذ برقي أوروبا هو استعادة لما كنا نملكه في الماضي وهو جوهر الحضارة الإسلامية .

أما السيد أحمد خان في الهند (ت ١٨٩٨م) فقد كان منجذباً بشدة إلى الغرب وأفكاره ، وآمن بتطويع قضايا الدين مع هذه الأفكار ويقول : " إن النور يأتي اليوم من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق فيجب أن نأخذ من أوروبا علومها ومدنيتها ونسير مع الزمن في مضمار الحياة العصرية ، وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم إنما يفقدهم ذلك الجهل لا العلم " .

لم يخل الأمر من معارضة هذا الاتجاه الذي ساد العالم الإسلامي على تفاوت ، فعلماء الدين بقيادة شيخ الإسلام في استانبول ساندوا الانقلاب على السلطان سليم الثالث عام ١٨٠٧م الذي حاول تطبيق إجراءات مقتبسة من الغرب اعتبرت تقليداً للكفار . وكذا في الهند تمت مقاومة حركة أحمد خان لتعاونه مع الإنجليز ودعوته لتقليدهم . أما في مصر فلم تحدث أيام محمد علي معارضة تذكر ، وتبدل الأمر أيام

إسماعيل باشا فقام العلماء بمعارضة إجراءاته التي أراد منها جعل مصر (قطعة من أوروبا) تماماً كما فعل معاصره السلطان العثماني عبد العزيز ومن قبله عبد المجيد وأبوه محمد الثاني الذين كانوا يترسمون خطى الغرب في كل شيء .

كان جمال الدين الأفغاني (ت ١٨٩٧م) من المفكرين الذين أدركوا دقة القضية ، فرغماً من معارضة الكثيرين له وتشكيكهم فيه فقد كوَّن اتجاهاً فكرياً ، وهو على ما أبداه من إعجاب بعناوين الحرية والمساواة والإخاء فمواقفه واضحة في التشكيك بكل ما يأتي من أوروبا ، وفي الدعوة إلى ضرورة العمل على توحيد المسلمين واستعادة قوتهم لمواجهة الخطر الغربي من خلال الاستعمار الذي دخل البلاد من باب (المكر واللين والخديعة والختل) كما أدان بقوة في رسالته (الرد على الدهريين) التوجه الإلحادي الإباحي للغرب حيث رفض المذاهب الفكرية الوافدة طالما تناقضت مع الإسلام .

أما تلميذه محمد عبده (ت ١٩٠٥م) الذي ابتعد عن العمل السياسي وآثر الاهتمام بالتربية ، وتعرض لهجوم من الكثيرين وما زال ، فقد كان واثقاً من حاجة المسلمين إلى تقدم أوروبا لأن نشأتها قامت على (استقلال الرأي والفكر والإرادة) ودعا إلى اعتبار تقدم الغرب دافعاً للمسلمين لفهم العقيدة الإسلامية وتطبيق مشروعه الإصلاحي بتحديث العقل الإسلامي ، وكان يرى عدم جدوى الدعوة التوفيقية بين الإسلام وأوروبا لأن انعكاساتها خطيرة على المسلمين فهي تحمل مقاصد فكرية خاصة بالغرب .

إذن بدأ القرن التاسع عشر الميلادي بالدعوة إلى إتباع مناهج الغرب وانتهى بالدعوة إلى التميز عنها ، رافق ذلك توتر في العلاقة مع الغرب من قبل بعض المفكرين نتيجة الأطماع الاستعمارية وضرب الدولة العثمانية . هذه الجهود من إتباع المدرسة الإصلاحية بقيت آثارها ضمن بعض النخبة ، أما الواقع العملي فلم يمنع التغلغل الواسع لأفكار الغرب وثقافته في الداخل الإسلامي مع بداية القرن العشرين ، التي يمكن وصفها بمرحلة الخضوع التام للصورة الأوروبية الشاملة والطاغية ، فهي لم تعد تعني مسألة خارجية بل أصبحت جزءاً من الواقع الداخلي ، ولم يكن هذا الأمر مصادفة بل نتيجة لجهود ضخمة من قبل البعثات التعليمية الإرسالية إلى بلاد الشرق الإسلامي ، والتوسع الكبير في حركة الاستشراق وأعمال الرحالة الذين جابوا البلاد ، واستلام مقاليد الحكم من قبل المستعمر الغربي مباشرة

أو بالواسطة ... كان لا بد لكل هذا من أن يكمل بعضه بعضاً ويؤتي ثماره ، فقد كانت جهوداً فائقة التنظيم والكفاءات والقدرات والتخطيط ـ بحيث يمكن القول أن الغرب ألقى عباءته على كامل العالم الإسلامي – على درجات تقل أو تكثر من بلد لآخر – وصف هذا الحال بدقة أبو الأعلى المودودي في كتابه (نحن والحضارة الغربية) : " فها هي مدارسهم ومكاتبهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعهم حتى وأجسامها وأشخاصهم تشهد كلها بأن قد استولت عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم علومه وآدابه وأفكاره ، فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية ولا يبصرون إلا بأعين غربية ... وقد رسخ في نفوسهم سواء شعروا أم لم يشعروا أن الحق هو ما عندأهل الغرب والباطل ما يعدونه باطلاً ... ".